

## تمظهرات الرمز في الخطاب الصوفي لدى الأمير عبد القادر وجمالياته

### Manifestations of the symbol in the mystical discourse of Emir Abdelkader and its aesthetics

عمارية حاكم<sup>1</sup>

<sup>1</sup> جامعة القصيم، بالمملكة العربية السعودية

[hakemamaria13000@gmail.com](mailto:hakemamaria13000@gmail.com)

تاريخ النشر: 2025/03/31

تاريخ القبول: 2025/02/09

تاريخ الإرسال: 2024/12/29

\*\*\*\*\*

#### ملخص:

يغدو التأويل الرمزي إستراتيجية تأويلية منطلقها المتلقي وموقعها النص، لذلك يرى (تودوروف) أن الفرق بين الخطاب والرمز لا يكمن في الطابع اللغوي، وإنما يتجلى من كون المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي يوجدان معا في الخطاب، بينما لا يوجد سوى أحدهما في الاستثارة الرمزية، وعلى هذا الأساس فالمتلقي لا يمكنه فهم الخطاب الصوفي إلا بربط الصلة بين الرمزية والتأويل.

يفهم مما سبق قوله إن التأويل يفرض نفسه أداة لقراءة كل خطاب صوفي شعرا كان أو نثرا حيث ينطبق على القراءة الصوفية التي تتجسد من خلال صرف الظاهر واعتماد الباطن لفهم النصوص وفق دلالتها الأصلية.

وانطلاقا من القراءة والتأويل، أحاول في ورقتي البحثية أن أستجلي بعض الأبعاد الرمزية الجمالية في نماذج من خطابات الأمير عبد القادر الجزائري التي تعد خطابات صوفية بامتياز من قبل معظم الدارسين والباحثين الذين يجمعون على أن كتابات الأمير تتميز بالنزعة الصوفية وكيفية تجسيده لرموزه في شعره، فالأمير هو متصوف إسلامي متحرر من قيود التقليد المميت، ومن عالم المادة الضيق والمغلق، وهو مثله مثل المتصوفين متطلع إلى عالم الروح الأسى والأعلى، وعلى هذا الاعتبار فإن خطابه تحتاج إلى دراسات نقدية تحليلية رمزية جمالية تأويلية خاصة ما تعلق بشعره عن المرأة والخمرة الإلهية.

ووفق هذه الإشكالية أحاول في ورقتي البحثية إن شاء الله، أن أستجلي بعض الأبعاد الرمزية الجمالية في نماذج من خطابات الأمير، معرفة التصوف بإيجاز، القراءة، الرمز، التأويل، الحب الصوفي، الخمرة الإلهية بالإضافة إلى المدح الصوفي، اللغة الصوفية وانزياحاتها التي تنقلنا من عالم مدنس بالماديات وحب الذات، إلى عالم أسى وأروع هو عالم الذات الإلهية المقدسة مع العارفين الذين عشقت أرواحهم الله، فتخلوا عن كل ملذات الدنيا، ومن عرف الله فقد عرف ذاته.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الرمز، التأويل، الحب الصوفي، الأمير عبد القادر

**ABSTRACT :**

The symbolic interpretation becomes an interpretive strategy, with the recipient's starting point and its location in the text, so (Todorov) sees that the difference between discourse and symbol does not lie in the linguistic character, but is evident from the fact that the real meaning and the figurative meaning exist together in the discourse, while there is only one of them in the symbolic excitation, and on this Basically, the recipient cannot understand the Sufi discourse except by linking the link between symbolism and interpretation.

It is understood from the foregoing that interpretation imposes itself as a tool for reading every Sufi discourse, be it poetry or prose, as it applies to Sufi reading, which is embodied by exchanging the outward and adopting the inner to understand the texts according to their original significance. Based on reading and interpretation, I try in my research paper to highlight some symbolic and aesthetic dimensions in examples of the speeches of Prince Abdul Qader Al-Jazaery, which are mystical discourses par excellence by most scholars and researchers who agree that the writings of the prince are characterized by a mystical tendency and how he embodies his symbols in his poetry. An Islamic mystic freed from the shackles of deadly tradition, and from the narrow and closed world of matter. Like the Sufis, he aspires to the world of the supreme and supreme spirit. On this consideration, his discourses need critical, analytical, symbolic, aesthetic, and interpretive studies, especially those related to his poetry about women and divine wine.

According to this problem, in my research paper, God willing, I try to clarify some symbolic and aesthetic dimensions in examples of the prince's speeches, briefly knowing mysticism, reading, symbolism, interpretation, mystical love, divine wine, in addition to Sufi praise, the Sufi language and its deviations that transport us from a world Defiled by material things and self-love, to a higher and more wonderful world, which is the world of the sacred divine essence with the knowers whose souls adored God, so they abandoned all the pleasures of this world, and whoever knows God knows himself.

**Keywords:** Mystical, Symbol, Interpretation, Mystical love, Prince Abdul kadir.

تمهيد :

### 1-نبذة عن حياة الأمير عبد القادر :

هو "عبد القادر بن محي الدين الحسني، المولود بتاريخ الثالث والعشرون من شهر رجب عام 1222هـ الموافق لـ 26 سبتمبر 1807م بالقيطنه، غريس معسكر نال اهتماما وعناية كبيرين من قبل والده الذي ظل ملازما له في السراء والضراء، حيث إنه لم يفارقه حتى في إقامته الجبرية، وقد رافقه في رحلته إلى بيت الله الحرام دون إخوته"1 "نال اهتماما وعناية كبيرين من قبل والده الذي ظل ملازما له في السراء والضراء، حيث إنه لم يفارقه حتى في إقامته الجبرية، وقد رافقه في رحلته إلى بيت الله الحرام دون إخوته"2، ولقد تولى الأمير عبد القادر قيادته للجهاد تحت إشراف والده، ولعل هذا الذي ساعده على بناء الدولة الجزائرية التي نال زعامتها في إبان العهد العثماني. "وتنقل معظم الكتابات أن الأمير عبد القادر قد نبغ في سن مبكرة؛ وربما يعود السبب الأول إلى صحبته لوالده، بالإضافة إلى عبقريته وإلى اختلاطه بأهل العلم والمعرفة والثقافة والسياسة، وكذلك إلى مجالسته لزعماء القبائل وكبرائها. الأمر الذي يسر عليه الاستفادة من تجاربهم الذاتية وخبراتهم السياسية، كما قربته من المريدين الوافدين على الزاوية ليعايش عن قرب طهارة فقه تصوف الطريق القادرية"3

" ويشير تشرشل بأن الأمير يكون قد تمكن في زمن قصير من إتقان القراءة، ومبادئ الحساب والكتابة والارتقاء إلى رتبة الطالب، الأمر الذي مكنه من حضور حلقات دروس الكهول، ودفع به إلى تدعيم ثقافته الذاتية لمطالعة أمهات الكتب في خلوته الليلية"<sup>4</sup>

"وبعد هذا الاستعداد؛ كان من البديهي أن يتفطن والد الأمير إلى موهبة ابنه في سرعة الاكتساب، فبعثه في بادئ الأمر إلى وهران للاحتكاك بتجارب الكبار وصفوة العلماء بهذه المدينة؛ أمثال: الشيخ أحمد بن الطاهر قاضي أرزيو، وأحمد بن خوجة وغيرهما"<sup>5</sup>

"فكان من ثمار ما جناه الأمير؛ التثقيف السياسي المبكر ثم التمرن على تجارب الغربة ولوعتها، وكذا الاحتكاك بخدام النظام وأهل المعرفة والعلم؛ لما كانت تزخر به مدينة وهران من مكتبات علمية ودينية، ومؤسسات ثقافية متنوعة؛ تنمي الذكاء وتشبع الفضول، وتملأ الفراغ، وتساعد على الاستفادة من الفقهاء والعلماء الوافدين على المدرسة؛ أمثال: محمد بن القريد، ومصطفى بن الهاشمي، وغيرهما من علماء اللغة والفلسفة والمنطق"<sup>6</sup>

"ولقد كانت الرحلة القسرية إلى وهران بمثابة تكوين حقيقي لشخصية الأمير؛ ولعل هذا ما أهله للاستفادة من رحلته إلى بيت الله الحرام، حيث جالس علماء من تونس، ومصر، وبغداد. كما استفاد من حلقات الدروس التي كانت تلقى بالجامع الكبير بدمشق"<sup>7</sup>

"ومن ميول الأمير؛ الرياضة الذكورية التي اختص بها فرسان عصره، التي تقترن بالتمرن على سرعة إطلاق النار ودقة إصابة الهدف، والحرص على اليقظة لمواجهة العدو، والتأهب للكر والفر في ميدان القتال المفترض؛ وكل هذا كان لابد له من صبر وتحمل، بالإضافة إلى التحضير النفسي والبدني؛ ومن البديهي أن هذه التحضيرات التي مارسها الأمير تكون قد أكسبته كفاءة عسكرية تلك التي أكدها الماريشال كاستلان"<sup>8</sup>

"وتقاسمه الحكم كل الذين تعرضوا للأمير في كتاباتهم عن الحملات الإفريقية، وتبعهم كل كتّاب التاريخ المهتمون بشخصيته العسكرية، من أولئك الذين يجمع كثيرهم على تكامل شخصيته في التفكير والتنفيذ، ويقرون بامتلاكها قوة من الصبر والتجلد، لا يتمتع بها في نظرهم الإنسان العادي"<sup>9</sup>

"ويرى كثير ممن أرخوا للأمير بأن سفريته الحجازية قد أكسبته قوة وجلدا، لما كان للسفر إلى بيت الله الحرام من مشقة وصعوبة المسالك، خاصة وأن رحلته تلك دامت سنتين. لهذا السبب يقدم بعض النقاد بأن قوته تمثل معجزة ربانية<sup>10</sup>، وبعضهم الآخر يسميه مدرسة حربية متنقلة"<sup>11</sup>

"والذي يدعم شخصية الأمير العسكرية والدينية هو مطالعته لأمهات الكتب – كما سبق الذكر- خاصة "أفلاطون، وابن خلدون، والغزالي، وابن رشد وآخرون"<sup>12</sup>

يؤكد هذا الاكتساب مؤلفاته هو شخصيا؛ خاصة كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، بالإضافة إلى مؤلفه (المواقف).

## 2-الإبداع الأدبي للأمير:

### أ-آثاره النثرية:

- وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب.
- المقرض الحاد لقطع لسان الطاغى في دين الإسلام من اجل الباطل والإلحاد.

- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل.
- المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد.
- تعليقات مع حاشية جده عبد القادر في علم الكلام.
- الصافنات الجياد.
- رسائل متنوعة.
- ب- شعره:
- الديوان.
- القصائد الواردة في مقدمة كتاب المواقف.

### 3- نقد وتعليق على آثار الأمير:

"من مؤلفات الأمير التي حفظها التاريخ دون غيرها؛ كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) ومؤلف (المواقف) الذي يمثل مخطوطا محفوظا بالمكتبة الوطنية بالجزائر، بالإضافة إلى مذكرته التي كتبها بسجنه الذي دام قرابة خمس سنوات منذ عام 1849، حيث تمثل هذه المذكرة سيرة ذاتية لمسار حياة الأمير، التي قام محمد الصغير بناني بتحقيقها والتقديم لها، وكذا التعليق عليها بصحبة محفوظ سماني ومحمد الصالح الجون"13

### 4- تحليل ماجاء في مؤلف (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل):

1- "يقول في كتابه (مؤلف ذكرى العاقل وتنبيه الغافل):" اعلّموا أن الإنسان من حيث حصوله في الحيز والمكان، فجسم كسائر الأجسام، ومن حيث يتغذى وينسل فهو نبات، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط"14 يتجلى واضحا أن الأمير كان واسع الثقافة في العلوم المنقولة وكذا المعقولة.

وفي المصدر نفسه وجدناه يقول: "ولا شيء أقبح من الإنسان مع ما فضله الله به، من القدرة على التحصيل الكامل بالعلم، أن يهمل نفسه ويعريها من هذه الفضيلة"15

هذا الكلام الذي يعد بحق حجة على عبقرية الأمير ووعيه بإدراك حقيقة الأمور الدينية والدنيوية.

### 5- تحليل ماجاء في مؤلفه (المواقف):

هذا المؤلف لا يدرك معناه إلا من كان من فئة واسعة الثقافة الإسلامية واليونانية؛ يقول في هذا المؤلف: "فالحق تعالى له القدم وما له دخل في الحدوث، والعالم له الحدوث وما له دخل في القدم، والإنسان له القدم وله دخل في الحدوث، فهو منعوت بهما، فلهذا هو رب وعبد، عبد من حيث إنه مخلوق مكلف ورب من حيث إنه خليفة"16، حيث إن هذا القول فيه من التأمل والتفلسف ما يجعل المعنى غامضا ومبهما.

وعن دعوته إلى الوحدة الدينية يقول الأمير "وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم والمعلم، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسل، وهي التي كان عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين"17

"ما يحفظ للأمير إلا النزر القليل، وما علم منه هو ما وجد في الديوان المشهور) أشعار منتخبة Poèmes Choies) الذي قام ممدوح حقي بجمعه وتحقيقه، بالإضافة إلى تحقيق زكريا صيام له، ثم (نزهة الخاطر في

قريض الأمير عبد القادر) من نشر ابنه محمد. يضاف إلى كل هذا ما حققه العربي دحو في الديوان نفسه، وما هو موزع بين مخطوط مؤلف (المواقف) وكتاب برونو إتيان (عبد القادر الجزائري).

" وإذا كان تاريخ الأمير عبد القادر العسكري والسياسي قد لقي اهتماما كبيرا من قبل المهتمين؛ مؤرخين ونقاد، فإن إنتاجه الأدبي لم يحفل بتلك الأهمية إلا مؤخرا، حيث لا يزال البحث في آثاره الفنية، أو من وجهة فنية لم يرق إلى الدراسات المعمقة لمعجم ألفاظه، ومعانيه التي لا تزال تلتبس على كثير من القراء، وربما يعود السبب في العزوف عن دراسة أعماله الأدبية إلى قول بعضهم: "ليس من المعقول في هذه الحقب العثمانية المظلمة أن تجد في أي بلد عربي شعرا يغذي الروح، ويمتدح الشعور، ويمنح قارئه لغة فنية، فقد أصبح الشعر أقرب ما يكون إلى اللهو والهراء، إذ لم يعد الشعراء يعبرون عن حياتهم وعواطفهم، إنما يعبرون عن زخارف البديع اللفظية، بل عن أعشابه التي تخنق الكلام ولا تترك فيه روحا ولا حياة، ونحن إذا قرأنا هذا الشعر لا نقرؤه لنغذي به عواطفنا أو لنزيد من ثروتنا العقلية، وإنما نقرؤه على أنه طور من أطوار تاريخنا الأدبي" 18

"ومما لم يشجع على الاهتمام بالإنتاج الأدبي، أيضا ما ورد على لسان الباحث أنس داوود الذي يقول: "منذ أواخر العصر العباسي حتى عصرنا الحديث، كان وميض عبقريتنا الشعرية قد خبا فيه تماما، وحفلت الأجواء العربية بنقيق النظاميين ومهارات العروضيين الذين عكفوا على اللعب بالمحسنات البديعية، وإنفاق قدراتهم في نظم الأغاز، وتلفيق التواريخ في نسج مهمل، وعبارات ركيكة وصمم تام عن متابعة حركة الحياة، والإحساس بجمال الوجود" 19

وإذا كان هذا الحكم العشوائي، والنظرة التشاؤمية قد ثبط من عزيمة الباحثين آنذاك معتبرين العهد العثماني خال من الشعر الفني، فإن الباحثين المعاصرين يؤكدون عكس ذلك، حيث أخرجوا تلك الأشعار التي قيلت في العهد العثماني من الظل إلى النور، وعلى رأسها شعر الأمير عبد القادر الذي يقول عنه المرحوم صالح خرفي: "كان شعر الأمير انتفاضة للقصيد العربي في الجزائر في أواسط القرن الماضي (يقصد القرن التاسع عشر) ويخفف من وطأة الفاقة الأدبية التي اجتاحت النصف الأخير لذلك القرن، إن القصيدة الأميرية شغلت هذا الفراغ ووجد فيها الرواة بعض العزاء" 20

ونعتقد أن هذا الاعتراف بمثابة حجة لدحض مزاعم الأوروبيين وبعض النقاد التقليديين الذين حاولوا طمس مكانة الأمير الأدبية، مدعما رأيه السابق بقوله كذلك: "لكننا عندما ندرس الإنتاج الأدبي من خلال المواقف البطولية التي يعبر عنها، وعندما تواجهها الصورة الشعرية تجسيما لواقع فروسي، عند ذلك يكون للدراسة وجه آخر، ويكتسي النقد مقاييس أخرى، وتصبح النظرة إلى النص الأدبي أبعد ما تكون عن التجرد، وألصق ما تكون بالنظرة الشاملة الواعية لكل الملابس والأبعاد؛ في ذلك الوقت يصبح البيت، بيت أمير شاعر لا شاعر فقط، والقصيدة؛ قصيدة فارس بطل، فيتضافر على الاستحسان أكثر من عامل... إن إنتاج الأمير في موقف بين بين، بين الإنتاج الذي يقف عملاقا بذاته، غير مهيب تعقب المقاييس النقدية المجردة، وبين الإنتاج الذي لا يواجهنا إلا مقنعا بوجه بطولي، إذا تخلى عنه تهافت تحت مظلة النقد، أشبه برجل الفضاء إذا تعرى من أقنعتة الوقائية" 21

ويعد ديوان الأمير عبد القادر من أكبر آثاره الشعرية، إلا أن هذا الديوان لم ينظم في فترة زمنية محددة؛ وإنما على فترات منقطعة، أي منذ بزوغ عبقرية الأمير بالجزائر إلى حين وفاته بدمشق سنة 1883م. وقد سمي ديوانه في مقدمة كتابه الصوفي الشهير بـ(المواقف).

ولقد كانت فرنسا السباقة في محاولتها الأولى لجمع أشعار الأمير، عندما ظهر كتاب (أشعار الأمير) حيث قامت بترجمته تحت عنوان (أشعار الأمير وأنظمته العسكرية) وطبع بباريس (Paris) سنة 1848. ولا يضم هذا الكتاب إلا القصائد التي نظمها الأمير حين تواجده بالجزائر قبل نفيه إلى فرنسا في سجن "أومبواز (Amboise)"، ويحمل هذا الكتاب في طياته قصائد الأمير الخاصة بالفخر والحماسة، ذلك الشعر الذي نظمته خلال فترة جهاده الشعبي والرسعي الذي امتد من 1830 إلى غاية 1847؛ أي إلى حين ترحيله إلى فرنسا. أما القسم الأكبر من الديوان فقد نظمته الأمير خلال فترة نفيه من أرض الجزائر التي امتدت من 1848 حتى وفاته عام 1883. ولقد اعتبرت هذه الفترة من أغنى المراحل في حياة الأمير الإنسانية والأدبية والفنية<sup>22</sup>

واعتمادا على أهمية ديوان الأمير، قام الدكتور ممدوح حقي بتحقيقه وضبطه وشرحه أكثر من مرة، كان آخر هذا العمل الطبعة الثالثة الصادرة ببيروت بتاريخ 1965 في ثمان وثلاثين ومائتي صفحة من القطع الكبير<sup>23</sup> ولقد رتب المحقق الديوان "تبعاً لفنونه؛ فإذا هي خمسة: الفخر، الغزل، المساجلات، والمناسبات، والتصوف"، وهو ترتيب موضوعي تبعاً لموضوعاته لا ترتيباً تاريخياً. فقط أن المحقق وعلى الرغم من عمله الجبار واهتمامه الكبير بآثار الأمير، إلا أنه لم يوضح المخطوطات والوثائق التي استند إليها في تحقيقه للديوان وإن كانت موجودة في دار الكتب الظاهرية، وفي دار الكتب المصرية<sup>24</sup>

ويرى الباحث فؤاد صالح السيد أن عمل المحقق ممدوح حقي لا يستهان به من حيث إنه يمثل مرجعاً أساساً لكل باحث يود الاضطلاع على آثار الأمير عبد القادر، غير أنه يؤاخذ على ترتيبه الموضوعي، ويفضل لو أنه رتب موضوعات الكتاب ترتيباً تاريخياً زمنياً حتى يتفهم كل متلق شعر الأمير تفهماً عميقاً، تسير عليه قصائد الأمير جنباً إلى جنب مع مراحل حياة الأمير المتباينة، وبذلك يصبح الديوان صورة لحياة الأمير ولسيرته الشخصية وإذا كان الدكتور ممدوح حقي في تحقيقاته الثلاثة كما هو موضح على غلاف الديوان) قصائد مختارة Poèmes : (Choisies) فإن الباقي من شعر الأمير ليعطينا من وجهة نظر فؤاد صالح السيد صورة واضحة عن قيمة الأمير الأدبية، وقوته الشعرية، ومقدرته الفنية في الفخر والحماسة، والمدح والتغزل، والتصوف وغيرها<sup>25</sup>

وبناء على ما توصلت إليه معظم الأبحاث التي تناولت آثار الأمير وجدنا أن عدد القصائد والمقطوعات الواردة في كتاب (المواقف) قد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة ومقطوعة؛ ثلاث منها وردت في الديوان، والباقية وردت في مقدمة كتاب (المواقف)؛ حيث تنتهي إلى فن أدبي فريد وهو فن التصوف

## 6- مفهوم التصوف:

• علم التصوف: يقول ابن عجيبة: "هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهب والتصوف عند شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري - رحمه الله تعالى -: "علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية"<sup>26</sup>

أما الشيخ أحمد زروق الفاسي – رحمه الله- فيعرفه بقوله: "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عمن سواه"<sup>27</sup>

والتصوف عند العلامة حاجي خليفة: "هو علم يعرف به كيفية ترقى أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم"، وقد قال:<sup>28</sup>

علم التصوف علم ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف  
وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف  
ويعرفه ابن ذكوان ببيت شعري مطلعته:

علم به تصفية البواطن من كدورات النفس في المواطن

وفي كتاب (المقدمة) يقول ابن خلدون: "وهذا العلم – يعني التصوف- من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف؛ فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"<sup>29</sup>

واعتمادا على هذه الأقوال وغيرها مما لا يتسع البحث لإيرادها كلها؛ نخلص إلى أن التصوف علم قائم بذاته، وهو من أشرف العلوم، لأنه يختص بعلم الباطن وفقهه، وانتسابه إلى الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، يؤكد هذا قول الحسن بن أبي ذر في كتابه (منهاج الدين) أنشدونا للشبلي:<sup>30</sup>

علم التصوف علم لا نفاذ له علم سني سماوي ربوبي  
فيه فوائد للأرباب يعرفها أهل الجزالة والصنع الخصوص

• تعريف التصوف: للتصوف تعريفات كثيرة تفوق الألف قول؛ لذا لا يمكن حصرها كلها، غير أنها تلتقي في قاسم مشترك هو التوجه إلى الله عز وجل والعمل بسنن نبيه الكريم والصحابة والتابعين، إذ هو "تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، وإتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة"<sup>31</sup>

• زمن ظهور التصوف: ظهر مصطلح التصوف بعد المائتين من الهجرة؛ أي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد تعددت مصطلحاته من الصحابة إلى التابعين إلى الزهاد والعباد إلى المتصوفة. يقول د/ حسن إبراهيم حسن: "ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر (التصوف) وذلك أن كثيرا من المسلمين اللذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف، وفناء الذات في حبه تعالى وثم سموا (بالمصوفين)"<sup>32</sup>

ومع شيوع مصطلح التصوف، ظهر العديد من علماء التصوف ومشاهيرهم، وأصبح لهم طرقا يسلكونها للوصول إلى غاياتهم، فانتشر التصوف في كل الرجااء الأمة الإسلامية على مر العصور والأزمنة، وفي جميع البقاع والأمكنة، منطلقا من الزوايا والمساجد مروراً بتدريسه في الجامعات الإسلامية، وحتى الجامعات الغربية.

• أهمية التصوف: تتمثل في تزكية النفس والروح عن كل ملذات الدنيا والتفرغ إلى معرفة الله وتلاوة كتابه، وإدراك أسرارهِ مصداقا لقوله تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، فكل سور القرآن الكريم توحى بأن الله عز وجل قد كلف الإنسان بقسمين من الأعمال: أعمال ظاهرة (كالأوامر والنواهي: الصلاة، الصوم، الزكاة... تحريم الزنا والسرقة). وأعمال باطنة هي الأخرى تمثل أوامر ونواهي ولكنها تترتب على القلب (كالإيمان بالله وملائكته وكتبه، وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر في باب الأمر، وكالنهى عن الكفر والنفاق والحقد...). والقسم المعول عليه في التصوف هو القسم الثاني، أي أعمال القلب لأنه محل النيات والإخلاص لله سبحانه وتعالى، وهو جانب ضروري لا يتم الإسلام إلا به، ولا يكمل الإيمان إلا به.

وبعد هذا التمهيد للتصوف؛ فما مفهومه عند الأمير عبد القادر الجزائري؟

#### 7- مفهوم التصوف عند الأمير:

جاء في كتاب (المواقف) للأمر أن التصوف هو: "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله" 33 ومن نواهي الأمير في باب التصوف تحذيره الصوفي: "الذي يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة إليه، أو حصول غنى، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية" 34 ومن الألفاظ التي كنى بها الأمير الصوفيين؛ (أهل الله)، وتارة (العارفون)، وأخرى (أهل الكشف والعرض) حيث لا يعني اللقب الأول: "هؤلاء الذين يأكلون النار، ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور، ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعلفهم العوام... لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعبة، ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم"

وينتهي الأمير إلى تعريف شامل كاف وشاف هو أن: "الصوفية هم سادة طرائق المسلمين" 35

#### 8- أسباب تصوف الأمير: 36

1 • نزعة الأمير الصوفية: لم نورد في ترجمة حياته أنه من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، بناء على خطتنا في هذا البحث؛ إذ نزعت الصوفية ربما تعود أسبابها أنه من حفدة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خدة وهي مرضعته، ابن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المخفي بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأم الحسن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلقد حاول الأمير أن يحافظ على نسبه الشريف بانعكافه على الخلوة والعبادة إلى أن توفي رحمه الله وطيب ثراه.

2 • نزعتة الإنسانية: للأمير مواقف تنم على أنه لم يكن يؤمن بالحواجز الجغرافية وبالحدود الفاصلة بين البشرية؛ إذ كان رجلاً متسامحاً منذ تواجده بالجزائر وأثناء نفيه بفرنسا إلى أن استقر به المقام بدمشق، ولقد "استطاع أن يحقق عملياً أسلوب الأريحية في العربية في النجدة والبذل، وحماية الدماء، وطابع الإيمان الإسلامي في التسامح والأخوة". وفي موقف النجدة جاء على لسانه أنه: "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى، لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخواناً ظاهراً وباطناً ولكن لا يصغون إلي". ويقول عن نفسه حينما التحق بمدارس اليهود لتدريس التوراة:

فطورا تراني مسلماً أي مسلم      زهوداً نسوكاً خاضعاً طالباً مدا  
وطورا تراني للكنائس مسرعاً      وفي وسطي الزنار أحكمته شدا  
وطورا بمدارس اليهود مدرسا      أقرر توراة وأبدي لهم رشدًا

فالأوضح أن هذه الأبيات تؤكد الروح الإنسانية للأمير، ومدى وعيه بحقيقة الإنسان والإنسانية.

3 • تربيته الدينية: تربي الأمير ونشأ نشأة دينية انطلقت من الروايات بدءاً بوالده محي الدين الحسني، حيث تلقى مبادئ العلوم الدينية والفقهية فيها وتمنى أن يكون مرابطاً مثل والده، ولعل جهاده وهو لا يزال صغيراً، وحفظه للقرآن الكريم في سن مبكر وسفرياته الإجبارية والقهرية، كل ذلك قد أهله فيما بعد لتحمل كل مصاعب الدنيا، ومن ثم سهل عليه التحكم في النفس وتزكيتها وترك كل لذائد الدنيا.

4 • إيمانه بالقضاء والقدر: يؤمن الأمير المجاهد والسياسي والفارس المغوار أن كل ما حدث له انطلاقاً من الجزائر، إلى وهران، إلى فرنسا، إلى دمشق، إلى الحجاز؛ كان تهيئة ومشية إلهية للعبادة والتصوف، حيث نلمس هذا الإيمان في كتاب العهد الذي سلمه الأمير لـ "لويس نابليون (Louis Napoléon)" الذي تضمن عدم العودة إلى الجزائر قائلاً: "عندما أمرني الله بالنهوض نهضت،... ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت، وعند ذلك فقط تخلت عن السلطة واستسلمت". مضيفاً قوله: "لقد خط لي بالميلاد والتربية والميل، أنه دور طالما اشترأت نفسي لاستئنافه، وطالما صليت إلى الله أن يسمح لي بالعودة إليه، الآن وقد قاربت سنوات عمري الشاقة نهايتها"

وبعد؛ فلا صراحة أصدق وأعمق مما ورد على لسان الأمير نفسه، من أن نفسه منذ كان طالباً كانت تواقه إلى التصوف والعودة إلى الله، وقد أوتي سؤله ولكن بعد مشقة جد مضنية (حرب وسجن ونفي عن الوطن)، فأى مشقة وأي جهاد بعد هذا غير الانشغال بحب الله والولع بهذا الحب؟!

يطول الحديث عن تصوف الأمير وتاريخه وأسبابه وكل ما تعلق بحياته ونزعتة الصوفية، وعن شعره وأغراضه، وما يهمننا في بحثنا هذا هو سر تلك الخمرة التي تغنى بها الأمير في شعره. فهل هي الخمرة الحقيقية التي تسكر وتذهب بالوعي وتجعل شاربه يرتكب الجرائم عاصياً لله ورسوله؟ أم هي خمرة إلهية حيث إن الحب الإلهي هو الذي يجعل صاحبه ثملاً بحبه لله والتفاني في هذا الحب؟ فأيهما أحلى يا ترى؟.

## 9 • الخمرة الإلهية في شعر الأمير عبد القادر الجزائري:

1. أزمة اللغة الصوفية: لغة الصوفية، هذه الأبجدية التي لا تقرأ عند السالكين إلا بعين القلب،: تمثل فضاء مهما ينبغي الوقوف عنده بتأن لكل من يروم مقارنة النص الصوفي دلاليًا ومعرفيًا، إذ في ساحاتها سقط فرسان الصوفية شهداء أفكارهم وآرائهم الذوقية العرفانية، وعلى أسوار حروفها نكل بالحلاج وصلب في النهاية عند محاولته المبكرة توليد لغة صوفية جديدة، وبسبب هذه اللغة أتهم بعض المتصوفة بالزندقة، ونعت بعضهم

بالكفر والخروج عن الدين؛ ومن هؤلاء: محي الدين بن عربي؛ شيخ الصوفية الأكبر والعفيف التلمساني، والنفري، وغيره.

ويعود اتهام المتصوفين إلى معجمهم اللغوي الخاص بهم، يقول الدكتور يوسف زيدان: "عانى النص الصوفي، منذ عصر التدوين من الاصطدام بحائط اللغة، فاللغة العادية لا تفي بالتعبير عن عالم الصوفية ذي الخصوصية الشديدة، وقد بلغت حدة الاصطدام باللغة قدراً أودى بحياة بعض الصوفية، وقادهم إلى نهايات تراجيدية، وأشهر هؤلاء: الحسين بن منصور الحلاج المقتول سنة 3004هـ وعن مصرعه؛ قال الشيخ عبد القادر الجيلاني، حينما سئل عن أمر الحلاج؛ يبين أزمة اللغة التي عثر فيها الحلاج قائلاً: "طار واحد من العارفين إلى أفق الدعوة بأجنحة (أنا الحق والحق أنا) رأى روضة الأبدية خالياً من الحسيس والأنيس، صفر بغير لغته تعريضاً لحتفه"

2. الرموز الصوفية: تعريف الرمز: ربما كان أرسطو (Aristote) أقدم من تناول الرمز على أساسه، وعنده أن الكلمات رموز لمعاني الأشياء، أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولاً، ثم التجريدية المتعلقة بمرتبة أعلى من مرتبة الحس، وهو لذلك يقول: "الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة وهذا المعنى يكون أرسطو قد حصر حدود الرمز وقصره على الرموز اللغوية، أما ريتشارد (Richards) وأوجدن (Ogdans) فإنهما يفرقان بين الاستعمال الرمزي والاستعمال الانفعالي للغة، إذ يعني الاستعمال الرمزي عندهما تقرير القضايا؛ أي تسجيل الإشارات وتنظيمها وتوصيلها إلى الآخر، بينما الاستعمال الانفعالي هو استعمال الكلمات بقصد التعبير عن الأحاسيس والمشاعر والمواقف العاطفية

أما العالم الألماني ستيفان أولمان (Stephen Ulmen)؛ فيقسم الرموز إلى: تقليدية كاللغات مكتوبة أو منطوقة، وطبيعية هي التي تتمتع بنوع من الصلة الذاتية بالشئ الذي ترمز إليه كالصليب رمز للمسيحية وفي علاقة الرمز بالتعبير عند الغربيين، فقد بلغ الشعراء الغربيون غايتهم بفضل توظيفهم للرمز، إذ جعلوا اللغة التي شاخ وأصبحت غير قادرة على التعبير رموزاً حتى ينفسح أمامها البوح باختلاجات الذات وارتعاشات اللاشعور، ومن دواعي الرمز عند الغربيين بالإضافة إلى ضيق اللغة، الوازع الديني، حيث استندوا إلى الأساطير بغية إحياء التاريخ والاعتماد عليه. ولعل هذا الذي أشار إليه شكري غالي بالقول: "إن عودة شعراء العالم في القرن العشرين إلى الأسطورة هو تعبير ملح على الإحساس الجديد بالماضي إحساساً طاغياً يفسر أزمة الإنسان الحديث في ظل الحضارة العلمية الصاخبة، ولذلك كان إيليون إنساناً ممتازاً في تجسيده هذه الأزمة من حيث أعلن بوضوح أن لا خلاص لنا من الأرض الخراب إلا بالعودة إلى أحضان الدين.

ومن هنا، فليس للرمز قيمة إلا بمدى دلالته على الرغبات المكبوتة في اللاشعور نتيجة الرقابة الاجتماعية والأخلاقية.

تُعد اللغة الصوفية أداة تعبر عن تجربة روحية عميقة، لكنها في الوقت ذاته تشكل تحدياً منهجياً ومعرفياً تواجهه الدراسات الأدبية والنقدية. فعندما نتأمل في معجم المتصوفة، نجد أنه يتسم بالتعقيد والغموض، حيث يتم استخدام كلمات تحمل دلالات حسية ودينية وتأخذ سياقات جديدة مرتبطة بتجارهم الروحية. فالشعراء الصوفيون مارسوا ما يسمى "إعادة التشفير اللغوي" من خلال تكييف الكلمات والمفاهيم التي تتعلق بالجنس والخمر وحالات النفس لتناسب عالمهم الروحي، هذه الاستراتيجية تأتي كاستجابة لتحديات

الفقهاء وعلاقتهم المتوترة مع التصوف، مما دفع المتصوفة إلى استخدام الرمزية كوسيلة للدفاع عن أفكارهم وتجاربهم.

الرمزية لم تكن مجرد وسيلة للتعبير بل كانت نتيجة لظروف تاريخية وثقافية فرضت على الصوفيين توخي الحذر في تعبيراتهم. لذلك اعتمدوا على أساليب تعبير غامضة تشمل الغزل والخمر ليتمكنوا من التواصل والتعبير عن تجاربهم بطرق لا تستفز السلطات الدينية أو تُفسر بشكل سلبي .

هذا النظام الرمزي لم يسمح فقط للمتصوفة بالاحتفاظ بعمق تجربتهم الروحية بل أيضًا بالتحايل على الرقابة الخارجية التي كانت تفرضها المؤسسات الدينية التقليدية. ومن هنا فإن دراسة هذا الشعر الرمزي تتطلب منا فهم السياقات التاريخية والثقافية التي أدت لنشأته وكذا التحليل الدقيق لبنيته اللغوية والدلالية لفك شفراته الكامنة وفك رموزه المعقدة، بذلك يصبح استكشاف هذا النوع من الشعر ليس مجرد بحث أدبي بل مسعى لفهم الجوانب الإنسانية والروحية العميقة للوجود والتجربة البشرية، وتحديات التعبير عنها ضمن إطار ثقافي وديني معيّن.

ولقد كانت الرمزية الخمرية عند الصوفيين غنية صادقة، فقد عبر الصوفيون عن شوق الروح إلى معرفة الله، ومحبهه بعبارات تكاد تكون عبارات المتغزلين من شعراء الغزل والنسيب، بل إن هذا التشابه ليشتد أحيانا، فنتوهم أن قصيدة صوفية هي قصيدة خمرية أو غزلية كشأن قصائد شعراء الخمرة والغزل<sup>3</sup>

10 • الرموز الصوفية في شعر الأمير عبد القادر:

بالعودة إلى شعر الأمير؛ يمكن التمييز بين رمزين صوفيتين هما: الخمرة، والحبیب وهو النهج الذي سلكه الأمير كسابقه. (ابن الفارض، ابن عربي،...).

1- متن قصيدة الخمرة الإلهية: يقول الأمير<sup>38</sup>

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| ويشرب كاسا صرفة من مدامة       | فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر      |
| فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة  | وليس لها برد وليس لها حر       |
| معتقة من قبل كسرى مصونة        | وما ضمها دن ولا نالها عصر      |
| ولا شأنها زق ولا سار سائر      | بأجمالها كلا ولا نالها تجر     |
| فلو نظر الأملاك ختم إنائها     | تخلوا عن الأملاك ولا قهر       |
| ولو شمت الأعلام في الدرس ريحها | لما طاش عن صوب الصوب لها فكر   |
| هي العلم كل العلم والمركز الذي | به كل علم كل حين له دور        |
| فلا عالم إلا خير يشربها        | ولا جاهل إلا جهول بها غر       |
| ولا غبن في الدنيا ومن رزيئة    | سوى رجل عن نيلها حظه نزر       |
| ولا خسر في الدنيا ولا هو خاسر  | سوى واله والكف عن كأسها صفر    |
| وفي شمه - حقا - بذلنا نفوسنا   | فهان علينا كل شيء له قدر       |
| وملنا عن الأوطان والأهل جملة   | فلا قاصرات الطرف ثني ولا القصر |
| وعن أصحاب الذوائب من غدت       | ملاعهم مني: الترائب والنحر     |

هجرنا لها الأحباب والصحب كلهم  
ولا ردنا عنها العوادي ولا العدى  
وقد أنعم الوهاب فضلاً بشرها  
فقل لملوك الأرض: أنتم وشأنكم  
خذ الدنيا والأخرى أباعهما معا  
وهات لنا كأساً فهذا لنا وفر

11 • قراءة رمزية جمالية :

تعتبر القصيدة الرائية مثلاً معقداً على التفاعل بين الشعر الصوفي والقارئ، حيث تحمل في طياتها دلالات قد تبدو متناقضة مع المفاهيم الشرعية من منظور التلقي السلبي، قد يُنظر إلى هذا الخطاب على أنه ينحرف عن المعايير المعروفة والمألوفة في الكتابة الأدبية، مما يعيق عملية التواصل الفعالة بين الشاعر والجمهور . فاللغة المستخدمة في هذه القصيدة محملة برموز ودلالات صوفية عميقة قد لا تكون مشفرة بشكل واضح للجميع، مما يؤدي إلى خلق حالة من الغموض لدى المتلقين. وقد يُساء فهم هذه الرموز وبالتالي تُتهم التجارب الصوفية بالزندقة أو الانحراف عن الطريق الصحيح.

إن الاختلاف بين الخطاب الصوفي وما ألفه الجمهور يجعل الأمر يتطلب مستوى عالياً من الوعي والانفتاح لفهم المعاني الكامنة وراء تلك الرموز والتجليات الشعرية. وعندما يُفهم هذا الخطاب كمجرد تعبير عن الهيام الإلهي ومشاعر الحب الروحي العميق، يمكن أن يتحول الغموض إلى جماليات روحية تعزز التجربة الإنسانية وتجعلها أكثر غنى وإثراءً.

إلا أن عدم قدرة بعض المتلقين على استيعاب هذا العمق الروحي قد يؤدي إلى امتعاض أو رفض لهذا النوع من الكتابة، مما يؤكد أهمية الحوار والتفسير في توضيح الدلالات الباطنية للخطابات الصوفية وتفكيك الشبكات الرمزية التي تحاول بناء جسور التواصل مع القارئ. والخروج عن الدين، عمد الصوفية إلى الاجتماعات السرية، وقد قال معي الدين بن عربي: " هذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق؛ كما فيه من العلو فعَوَزُهُ بعيد، والتلف فيه قريب، فإن من لا معرفة له بالحقائق، ولا بامتداد الرقائق، ويقف على هذا المشهد من لسان صاحبه المتحقق به، وهو لم يذقه ربما قال: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، لهذا نستره ونكتمه". وقد قال في هذا الشأن:34

أ- خصائص خمرة الأمير:

تطرق الأمير للتغني بالخمرة في قصيدته الصوفية على غرار قصيدة (ابن فارس) الميمية التي يرمز فيها إلى المعرفة الإلهية أو المعرفة الحبيب الأزلي والتي مطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

حيث تتشابه القصيدتان إلى درجة التطابق، ويمكن تقسيم القصيدة إلى مقاطع أربعة حيث يمثل كل مقطع قيمة في ذاته:

- الخمرة القديمة (المعتقة) من البيت (1-2): خمرة الأمير هي خمرة قديمة قبل عصر كسرى، وهي محفوظة حيث لا علاقة لها بعصر معين، إذ هي خمرة صافية نقية غير ممزوجة بما يعكر صفائها ولا يمكن بيعها ولا المتاجرة بها.

- الخمرة التي لا تسكر: إذا كانت الخمرة بعد الحساب والعقاب هي من ألد شراب الجنة، فالأكيد أنها خمرة لا تسكر، ولا تذهب بعقل الإنسان ووعيه، وهذه هي خمرة الأمير التي يتغنا بها ويدعو إليها. (1-2)
- أثرها في البيت (3-4): الأمير يدعو الملوك والأعلام إلى شربها لما لها من أثر في عدم الابتعاد عنها إن هم تذوقوها أو نظروا إلى ختم إنائها، أو شموا ريحها. وهذا الوصف هو نفسه الذي قام به ابن الفارض.
- الخمرة هي العلم والمعرفة: تمثل خمرة الأمير في البيت الخامس العلم بكل اكتشافاته، والمركز الذي تدور حوله كل العلوم.
- الخمرة هي الغنيمة الكبرى: في الأبيات (6-7-8) يرى الأمير بأن الغنيمة الكبرى في هذه الحياة هي أن يعي كل خبير قيمة هذه الخمرة، ومن لم يشربها فهو خاسر وجاهل.
- الهجرة إلى الخمرة:
- في الأبيات (9-10-11-12-13) يخبرنا الأمير بأنه لمجرد شمها فقد عانى وراض وجاهد، ونفي عن الأوطان وتخلي عن الأهل والأحبة، وعن قاصرات الطرف والقصور، وعن القيادة والسلطة، وعن فلذات كبده وحتى عن الأصدقاء، ولم يوقفه أي خطر أو عدو ولا أربه خلاء ولا صحراء، ولا راعه هول بحر، فلا شيء ثبط من عزيمته عن هجرته الروحية إلى سيده الأعلى وحيبيه المبجل.
- بلوغ المقصد:
- في الأبيات الأخيرة (14-15-16) توجي بوصول الأمير إلى غايته السامية بعد تلك الرحلة الشاقة والمضنية التي ترك فيها كل الأمور الدنيوية التي لا يستطيع إنسان عادي أن يتركها، ولا تتأتى إلا لمن يتحمل مرارة الصبر وكظم أهواء النفس.
- يعترف الأمير أخير، وهي نتيجة حتمية لكل من يصبر أنه قد من عليه الوهاب بشرب الخمرة وهو لذلك يحمده ويشكره لأنه بشرها توصل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وإلى معرفة الأسرار العلوية التي لا يمكن أبدا أن يعرفها أحد مع متع الدنيا المادية، إذ نعمة معرفة الله هي فوق كل المعارف والنعيم.
- والشرب في تصور السراج الطوسي هو " تلقي الأرواح والأسرار الطاهرة لما يرد عبيها من الكرامات وتنعمها بذلك، فشبه ذلك بالشرب لتهنيه وتنعمه بما يرد على قلبه من أنوار مشاهدة قرب سيده"، لذلك اعترف الأمير ببلوغه الغاية الأسى حين قال:
- وقد أنعم الواب فصلا بشربها      فلله حمد دائم وله الشكر
- فالفضل هو النعمة، والنعمة تستوجب الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى.
- ج- الخمرة والمحبة عند الأمير:
- إن ذا النون المصري لا يربط الشرب بالخمرة بل بالاعتراف من بحر المحبة، ولهذا يخلو الأمير إلى حبيبه، وقد أديرت الأباريق والأقداح المملوءة من خمرة المعرفة الإلهية، إذ كلما ازداد شربا ازداد معرفة بحبيبه، وكلما زاد معرفة ازداد محبة له. يؤكد هذا قول الأمير: 35
- أود طول الليالي أن خلوت بهم      وقد أديرت أباريق وأقداح

وأما الشراب عند التهانوي فهو العشق والمحبة، والسكر والغياب عن الوعي، والمعنى الذي يلتقي عنده كل من السراج الطوسي، وذي النون المصري، والتهانوي؛ هو الارتواء من عذوبة الذكر وسائر الطاعات.  
د- معجم الألفاظ :

إن استخدام الأمير لألفاظ معجمية صوفية مرتبطة بالخمرة في شعره يعكس عمق تجربته الروحية وعلاقته بالمحسوب. هذه الألفاظ، مثل "كأس صرفة" و"مدامة" و"معتقة"، لا تقتصر على تصوير حالة سكر مادية، بل تتجاوز ذلك لتعبر عن حالة من النشوة الروحية والاتصال الدائم مع الله.

اختيار هذه الألفاظ لم يكن عشوائياً، بل كان مدروساً بعناية ليعكس مفهوم السكر الروحي الذي يتحقق من خلال الذكر والتأمل في المحبوب. يشير التعبير "غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب" إلى أن الحب الإلهي يتسبب في إثارة مشاعر قوية قد تشبه تأثير الخمر، مما يزيد من ارتباط المتصوف بمعبوده ويعمق تجربته الروحية، بذلك، يمكن القول إن هذا الاستخدام اللغوي يعزز الفكرة الصوفية القائلة بأن الحالة الروحية العالية تتطلب استمرارية الاتصال بالمحسوب وتذوق حلاوة الذكر، مما يجعل الشاعر يعيش تجربة سكر روحي دائمة تعكس حباً خالصاً وانغماساً في عالم المعنى.

إن الذكر هو قوام المجاهدات الصوفية؛ أي " طرد الغفلة، فإذا ارتفعت فأنت ذاكر وإن سكت". وهو أيضاً " الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غاية الخوف أو لكثرة الحب". فالتصوف قيمة روحية يلتزمها الصوفي ليبقى على اتصال دائم بالله عز وجل كما يلزم الثمل الخمرة ويطلب النشوة، فخمرة الأمير لا تسكر ولا تتلف العقل، وهو لذلك قال:36

فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة      وليس لها برد وليس لها حر  
مقتبسا في هذا البيت من قوله تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى، وهو وصف للجنة وأن الذي يفوز بها لا يلقي فيها إلا كل الخير خاصة العارفين بالله.  
الواقع أن الخمرة توضع في قارورات جميلة، وهو غرض تجاري، وحتى كؤوسها لها شكل جميل وهذا الشيء المادي هو الذي أسقطه الأمير في قوله واصفا داعيا:

فلو نظر الأملاك ختم إنائها      تخلوا عن الأملاك طوعا ولا قهر  
وهو تصوير فني جميل إذ لا أحد ينكره إلا جاهل لم يكن له حظ في شربها أو نيلها، وهذه الصورة هي تألف بين مستويين من الحسن والجمال (ختم إنائها) وهو وصف طبيعي والآخر روحي وهو (لذة الذكر). لا لذة الشراب المادي؛ إن الأمير يربط بين النشوة الروحية بالنشوة المادية وهذا ينسجم مع الوظيفة البلاغية والحجاجية للتصوير الفني الذي يقدم المعنى المجرد في هيئة حسية.

ه- ربح الخمرة: يقول الأمير:37

ولو شمت الأعلام في الدرس ريحها      لما طاش عن صوب الصواب لها فكر  
وفي قوله أيضا:

وفي شمها حقا بذلنا نفوسنا      فهان علينا كل شيء له قدر

فالواضح أن الأمير لم يخلع عن المدامة ريحها الذي لا يخطئ في معرفته عارف، ومن أجل ريحها بذل الأمير كل جهد وكل مشقة، وفارق الأحبة... وتيسر عليه وهان كل شيء له قيمة وقدر، فريحها هو ذلك المسك ذو الرائحة الزكية التي هي سر تعلق الشاعر بها وترك كل ما دونها.

يبرز الأمير عبد القادر في شعره بعداً عميقاً من التأمل في الخمرة، ليس فقط كمادة مادية، بل كرمز للسُّكر الروحي الذي يرتبط بحالة من الارتباط العميق بالمحبوب. يتناول الأمير تأثير هذه الخمرة على الملوك والأعلام، مشيراً إلى أن سكرها يأتي بشكل غير إرادي، مما يعفي هؤلاء من اللوم أو الإثم. إن مجرد ذكرها أو استنشاق ريحها يمكن أن يثير تلك الحالة السُّكرية.

هذا المقارنة بين شدة تعلق المحبوب بالذاكر وتعلق الثمل بالخمرة تخلق جمالية خاصة من حيث القيم الفنية والرمزية. يجسد هذا التماثل الصوفي العلاقة الحميمة التي تربط المتصوف بمعبوده، حيث يُظهر كيف أن السكر الروحي يعد تجسيدا للهيام في حب الله وذكره.

عمل الأمير عبد القادر وكثير من المتصوفين هو اجتهاد في يستهدف معالجة الفجوة الموجودة في الأخلاق الإسلامية عبر دعوة العامة للانتشاء والسُّكر المعنوي المستند إلى الذكر والمجاهدات والسماع. يسعى هؤلاء العارفون لإحداث تحول إيجابي في نفوس الناس، ويعبرون عن رغبتهم في تهذيب الطباع والانطلاق بها نحو آفاق أسمى من السمو الروحي، بهذا الشكل، يقدم الشعر الصوفي رؤية متكاملة تجمع بين الجوانب الفنية والروحية والأخلاقية، مما يجعل التجربة الإنسانية أكثر غنى وعمقاً ويساهم في تعزيز الفكر الإسلامي وممارساته الإيجابية.

وأخيراً، فإنني لا ادعي بأنني قد أحطت بكل ما يتعلق بآثار الأمير الأدبية الصوفية؛ إن شعرا أو نثرا فقد تطرقت فقط إلى الخمرة الإلهية ورموزها الصوفية في شعر الأمير عبد القادر الذي سار على نهج وهدى من سبقوه من المريدين كابن عربي في شعره عن المحبة، وكابن الفارض في شعره عن الخمرة الإلهية. ولا تزال مناطق الظل في خطاب الأمير عبد القادر الجزائري لم يسلط عليها الضوء كما يستدعيه قدره وقيمه.

ونأمل أن نكون قد ساهمنا ولو بنزر قليل في إعادة الاعتبار لأحد شعرائنا الجزائريين الذي يمثل مجاهداً وسياسياً وبطلاً وشاعراً ومتصوفاً، وإنه لشرف للجزائر أن يكون لها قامة عظيمة كالأمير عبد القادر بن محي الدين الحسني.

#### هوامش البحث:

- 1- ينظر: سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، الحاج مصطفى التهامي، تح، وتق، وتغ: يحيى بعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط/1، 1995، ص50.
- 2- ينظر: الأمير عبد القادر، شارل هنري تشرشل، تر وتغ وتق: أبي القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص65.
- 3- ينظر: في تاريخ العهد العثماني، ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص228.
- 4- ينظر: حياة الأمير عبد القادر، تشرشل، ص61.

- 5- ينظر: مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، عدد خاص، 1983، ص125.
- 6- سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، الحاج مصطفى بن التهامي، ص:50-52.
- 7- ينظر: المرجع نفسه، ص:96-100.
- 8- **Compagnes d'Afrique, Marechal De Castellqine, P:467**
- 9- **Histoire de l'Algérie contemporaine, Ch André, Juillien, P:179-181.**
- 10- **Lettes d'un soldat, De Montagne, P:438**
- 11- مذكرات الكولونيل أسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص94.
- 12- ينظر: حياة الأمير عبد القادر، تشرشل، ص71.
- 13- مذكرات الأمير القادر محطوط سيرة ذاتية كتبها في السجن 1849، تح وتع: محمد بناني ومحمد الصباح الجون.
- 14- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، الأمير عبد القادر، تح وتع: ممدوح حقي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، د/ط، د/ت، ص37.
- 15- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، الأمير عبد القادر، تح وتع: ممدوح حقي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، د/ط، د/ت، ص37.
- 16- المواقف، مخطوط الأمير عبد القادر، الجزء الثاني، صورة من الأصلية المحفوظة بالمكتبة الوطنية، الجزائر، 1996، ص3.
- 17- المصدر نفسه: ص02
- 18- فصول في الشعر ونقده، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، د/ط، 1971، ص281.
- 19- رواد التجديد في الشعر العربي الحديث، أنس داوود، الجماهيرية الليبية، د/ط، د/ت، ص7.
- 20- في ذكرى الأمير عبد القادر، صالح خرفي، ص21
- 21- المرجع نفسه، ص67.
- 22- ينظر: الأمير عبد القادر الجزائري – متصوفا وشاعرا-، فؤاد صالح السيد، صادر عن وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، د/ط، هامش، ص88-89.
- 23- الأمير عبد القادر الجزائري – متصوفا وشاعرا-، فؤاد صالح السيد، ص90.
- 24- مقدمة ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ط/3، ص18.
- 25- الأمير عبد القادر الجزائري – متصوفا وشاعرا-، فؤاد صالح السيد، ص92.
- 26- ابن عجيبة أحمد بن محمد بن المهدي، الحسني الأنجري مفسر صوفي من أهل المغرب، مدفون ببلدة أنجرا (بين طنجة وتطوان) توفي في (1224هـ/1809م) له كتب كثيرة (الأعلام للزركلي).
- 27- معراج التشوق إلى حقائق التصوف، نقلا عن كتاب: التصوف طريق التزكية والإحسان، د/محمد خير فاطمة النعيمي الحسني، دار العصماء، دمشق، سوريا، ط/1، 2013، ص11.

- 28- أحمد زروق صوفي وفقه مالكي، محدث له كتب متعددة، ولد بفاس، وتوفي بتكرين عام (899هـ/1493م) معجم المؤلفين بعمر كحالة.
- 29- قواعد التصوف، أحمد زروق الفاسي، قاعدة 13، ص6، نقلا عن كتاب: التصوف، د/محمد خير فاطمة، ص11.
- 30- الشبلي محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي أبو عبد الله بدر الدين بن تقي الدين، فاضل من فقهاء الحنفية، ولد بدمشق توفي (769هـ/1376م)، (الأعلام للزركلي).
- 31- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر الكلبادي، ص25، نقلا عن كتاب: التصوف، ص17.
- 32- د/حسن إبراهيم حسن: دكتور في التاريخ والفلسفة، مصري المولد ولد في طنطا، وتعلم في جامعتها القديمة، والمعلمين العليا وجامعة لندن، ودرس التاريخ، تقلب مناصب عدة من عميد إلى مدير الجامعة، درس بجامعة الرباط (المغرب)، وأستاذا في جامعة بغداد ودمشق بالقاهرة (ت 1388هـ/1968م)، (الأعلام للزركلي).
- 33- تاريخ الإسلام، د/حسن إبراهيم حسن، ج3، ص22.
- 34- المواقف، الأمير عبد القادر، مج1، الموقف 71، ص141.
- 35- المرجع نفسه، ص142.
- 36- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، الأمير عبد القادر، ص29، وينظر كذلك: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتح: ممدوح حقي، منشورات دار اليقظة، بيروت، ط2، (1384هـ/1964م)، ص923.
- 37- المرجع نفسه، ص143.